

آراء جيروم كوانيار لأناطول فرانس

بمستلم
الأستاذ على أدلهم

ليس صاحب مذهب ولا مبشراً بعقيدة من العقائد ،
وعنده أن الأشياء والحقائق جميعها نسبية ، والذين
يؤكدون الحقائق ويقطعون بصحتها في رأيه تنقصهم
الأمانة وربما تعوزهم الصراحة ، أو أن عقولهم ليست
من المستوى الرفيع ، فهم ضيقو الفكر مخدوعون ،
ولذلك ظل طوال حياته لائئذاً بالشك ، يؤثر الرأي على
المعتقد ، وينظر إلى متناقضات الحياة نظرة تسامح
وعطف ، ولا يضيق بها ذرعاً ، كما قال عن لسان
جاليليو في كتابه « الحجر الأبيض » لو لم يكن من شأنى
محاولة التوفيق بين آرائى الخاصة ، ولو كنت من
هؤلاء الذين يختصون بالتمييز والترجيح مذهباً من
المذاهب ويعرضون عن غيره لما استطعت أن أحتمل
حرية أى رأى آخر ، وما دمت قد هدمت حريتى
فإنى لا أستطيع المبادرة إلى قبول حرية غيرى ، وسأفقد
ما ينبغى توفره من الاحترام لكل مذهب وطد أساسه
رجل مخلص ودان به ، ومعاذ الله أن أريد لرأى أن
يتغلب ويسود ويستبعد كل رأى آخر وأمارس سلطة
مطلقة على العقول الأخرى .

وهذا رأى رجل ليس عنده قابلية احتمال العناء في
سبيل البحث عن عقيدة ، وليست له رغبة في أن ينضم

أناطول فرانس أحد الكتاب النوادر الفرنسيين
الذين ينعم الإنسان بصحبتهم ، وتستهو به قراءة مؤلفاتهم
وهو من سعة الثقافة وغزارة المعرفة وبراعة الفن
بالمكانة العالية ، وهو مع ذلك سهل المرام ، عذب
المورد ، كثير الترفق بقارئه ، لا يقدم له ما يكدر ذهنه
ويتعب الخاطر ، وليس معنى ذلك أنه يتحاشى
المشكلات العسيرة الحل والأفكار الشديدة التعقيد فإن
كتبه حافلة بالمشكلات الهامة والأفكار الخطيرة ، ولكنه
يتناولها بأسلوبه الساحر ، ويعرضها عرضاً شائقاً ينفي
عنها الغموض ، ويحيطها بجو من السخرية الرقيقة المهدبة
النفادة ، ويمتاز أسلوبه بالبساطة مع الدقة والإحكام ،
وهو في تاريخ الأدب الفرنسى الحافل بالكتاب المجيدى
والشعراء البلغاء يعد أحد الكتاب الثلاثة أو الأربعة الذين
بلغ النثر الفرنسى على أيديهم أرقى المستويات وأقصى
مراحل الإجادة والإتقان ، فهو خير مثال للبقرية
اللاتينية ، وإنموذج صالح للعقلية الفرنسية الحادة الفطنة
المنسرحة من أخاديع الأوهام ، وقد طرق موضوعات
شتى ، وتناول في كتبه عصوراً مختلفة قديمة وحديثة ،
وتنقسم مؤلفاته بسمتين واضحتين تربط بعضها ببعض
أولاً أسلوبه المحكم السرد وثانياً موقفه من الحياة ، فهو

يوماً ما إلى صفوف المجاهدين في سبيل انتصار مثل من الأمثلة العليا ، فهو يتخير المذهب الذى يرتاح إليه ويرضى ذوقه ، ولكنه لا يخاصم سائر المذاهب ولا يتحامل عليها ، وهذا المسلك هو النتيجة المنطقية لموقف الشك الذى اتخذه أناتول فرانس واطمأن إليه . وهو موقف جدير برجل كان يرى نفسه تلميذاً لفولتير ومونتيني ورينان ، ولم يكن باعث الشك في نفس أناتول فرانس عدم المبالاة ، وإنما الرغبة في التزام جادة الاعتدال والحرص على الإستمتاع بمختلف الآراء وألوان المذهب ، والإفادة منها جميعاً ، وقطف الأزاهير من رياضها المتنوعة ، وأن يرضى بذلك عقله المتطلع ، ويشبع أحاسيسه الفنية ، وكأنه كان يخشى عادية التشاؤم الكامن وراء هذا الشك الشامل فاستعان على دفع غائلته بتلك السخرية اللامعة السمحة التي عبرت عنه شخصياته الأثيرة أمثال الأب كوانيار وبرجرية ونيكياس .

وقد ولد أناتول فرانس في باريس في اليوم السادس عشر من شهر أبريل سنة ١٨٤٤ ، وكان والده - ويدعى فرانسوا نويل تيبو - بائع كتب قديمة ، ولم يكن من باعة الكتب العاديين ، فقد استكمل معرفته الواسعة بالكتب في جمع المجلدات النفيسة النادرة ، وكانت أحاديثه مع زبائنه ورواد متجره تخلق جواً أدبياً لطفولة نجله ، ولذلك نشأ أناتول فرانس محباً للكتب نزاعاً إلى القراءة والاطلاع ، وكانت والدته حسنة الإدراك تغلب عليها التقوى والبساطة ، وكانت تقرأ له في طفولته عن حياة القديسين ، وقد وصف لنا في كتابه عن ذكريات طفولته الذى أسماه « صديقى » أثر هذه القراءة في نفسه فقال « كانت والدتي امرأة تقية ، وكانت تقواها رقيقة وجادة مثلها ، وقد أثرت في نفسى تأثيراً عميقاً ، وطالما قرأت لي شذرات من « حياة القديسين » وكنت أصغى في سرور وقد امتلأ قلبي بالخوف والإعجاب ، وهكذا أتيج لي أن أعرف الوسائل التي

استطاع بها الذين اصطفاهم السيد المسيح أن يجعلوا حياتهم غالية وجديرة بالثناء والتقدير ، وعرفت ذلك الشذا العطر المتصوع من ورود الاستشهاد ، ولكن الاستشهاد كان غاية قصوى لم أعقد العزم على بلوغها ، ولم أفكر في القيام بعمل الرسول أو الواعظ لأن ذلك كان من وراء قدرتي ، وكانت الفكرة التي استولت على هي أن أعيش عيشة ناسك ، وكانت هذه خطة أستطيع سلوكها في يسر وأمن ، ولأجل ألا أضيع وقتاً في وضع آرائى موضع التنفيذ رفضت أن أتناول طعام الفطور ، ولما كانت والدتي لا تعلم شيئاً عن اتجاهي الدينى الجديد لذلك خالفتى مريضاً ، ونظرت إلى وقد احتواها القلق إلى حد أثار همى ، ولكنى برغم ذلك ظلت صائماً ، وتذكرت مثل القديس سمعان العمودى الذى قضى حياته على العمود ، وتسلفت صهريج المياه في المطبخ ، ولكن لم يكن من الميسور بقاى هناك لأن جوليا الطاهية أنزلتني في الحال ، وبرغم أنى أخرجت من الصهريج فقد تابعت السير في طريق الكمال بحماسة لا يعترها فتور ، وصممت بمد ذلك على أن أحاكى القديس نيقولا الباترسى الذى أعطى ماله للفقراء ، وكانت نافذة غرفة مطالعة والدى تشرف على رصيف مرسى السفن فألقيت من النافذة اثنتى عشرة قطعة من النقود النحاسية أو ما يقارب ذلك ، وكانت أعطيت لي لأنها كانت جديدة براقية ، وأتبع ذلك بإلقاء الكرات الرخامية التي كنت ألعب بها والحداريف ونحلة الكرباج وسوط جلد ثعبان الماء ، فصاح والدى وهو يقفل النافذة « لقد جن الطفل » فتملكنى الغضب واستولى على الحجل حينما سمعت والدى يصدر على مثل هذا الحكم ، ولكنى تذكرت أن والدى ليس قديساً مثلى ولذلك لا يستطيع أن يقاسمنى الأبحاد التي ينالها من أنعم الله عليهم ، وقد أفرغت هذه الفكرة على قلبي العزاء .

وقد التحق أناتول فرانس بكلية ستانيزلاس
الجزويتية ، ولم يكن من الأطفال الناشطين اللامعين ،
كان يغلب عليه الحياء والميل إلى الاحتجاز ، وكان
يعجب بأثرابه البارعين الأقوياء البنية الأشداء ، وكان
لا يتقطع عن القراءة والاسترسال في الأحلام ، وخطر
له أن يكتب تاريخاً للعالم في أربعين مجلداً .

وكان نضجه بطيئاً ، وأراد له والده أن يعد نفسه
لإحدى الحرف الحجزية ولكنه لم يمل إلى أى حرفة من
الحرف التى تدر المال ، ولذلك تركه والده يتسكع فى
حانوته ، وينتظر قدوم الزبائن ، ويقرأ الكتب ،
ويقوم بمحاولات فاشلة للكتابة محاكياً ما قرأه فى
الكتب ، وهكذا كان يطوى أيام شبابه ويساعد والده
فى إعداد قوائم الكتب وإعداد الفهارس ، ونظم بعض
الأشعار ، وظل يعيش عالة على أبيه حتى بلغ الثلاثين
من عمره ، وقد التحق حينذاك بالعمل فى مكتبة مجلس
الشيوخ ، وحدث خلاف اضطره إلى تقديم استقالته ،
وحصل بعد ذلك بعض المال لقاء مقدمات كان يصدر
بها بعض الطبعات الشعبية لكتب الأدب الكلاسيكى ،
وقد جمع فيما بعد هذه المقدمات فى كتاب « العبقريّة
اللاتينية » وتزوج بعد ذلك ، وقضى مع زوجته ثمانى
سنوات ، ولم تكن حياته الزوجية سعيدة ، فقد كانت
زوجته شديدة الاعتزاز بأصلها ، وكانت تنظر إلى
زوجها العالم الأديب نظرة ازدراء لأنه ليس له نصيب
من عراقة الأصل ، ودفعها هذا التعالى إلى فرض إرادتها
الصارمة عليه ، وظل حيناً من الزمن يخشى بأسها ،
وينقاد طوعاً أمراً ، ولكنه لم يستطع الاستمرار فى احتمال
طغيانها ، وتمرد عليها ، وكثرت الخلافات بينهما ،
وفى إحدى المرات التى احتدم فيها الخلاف بينهما رمته
بكلمة جد نابية جرحت إياه ونالت كل النيل من
كرامته فغادر المنزل ، وتم الطلاق فى سنة ١٨٩١ :
وبعد أن قدم للطبع مجموعتين من القصائد
والمقطوعات الشعرية الأولى بعنوان « القصائد الذهبية »

والثانية بعنوان « الأعراس الكورنتية » وطائفة من
القصص لم تلق رواجاً ولم تصادف قبولا ولا تقديراً من
النقاد شرع فى تأليف كتابه المشهور المعروف باسم
« جريمة سلفستر بونار » وقد قال أناتول فرانس نفسه
لبروسسون الذى لازمه زمناً بوصفه سكرتيراً له عن
هذا الكتاب « إنه أنفه مؤلفاتى جميعها وأشدّها بغثاً
لأملل ، وقد كتبت لأظفر بجائزة من الأكاديمية » والواقع
أن هذا الكتاب كان من دواعى اختياره عضواً فى
الأكاديمية ، وقد استقبله الناقد الفرنسى الشهير جيل
ليمر بفصل حماسى أطرى فيه المؤلف وأثنى على الكتاب
وبونار هذا رجل متقدم فى السن وأحد أعضاء الجمع
العلمى ، وهو يعيش عيشة العلماء منقطعاً إلى البحث ،
وفى بعض الأحيان يطوف بنواحى أوروبا جامعاً نواذر
المخطوطات ونفائس الآثار ، وهو مع ذلك لا ينسى فى
روحائه وغدواته ابنة امرأة ماتت كان قد أحبها حباً
خالصاً ولكن هذا الحب لم ينته بالزواج ، ولم يكن
هناك مسوغ قانونى ليقم نفسه وصياً على هذه الابنة ،
ولكنه مع ذلك كان معنياً بأمرها ، حريصاً على إسعادها
وقد حماها من سوء معاملة إحدى المدرسات لها وأخيراً
يخطفها ويذهب بها إلى منزله ليوفر لها أسباب الراحة ،
ويجنّبها سوء المعاملة ، ويحبوها بعطفه ، ويشملها برعايته
وحيثما يتقدم أحد الخاطبين لا يرى الشيخ الفانى بأساً فى
الموافقة على الخطبة وحرمان نفسه من الاثناس بقرب
الفتاة ، ويبارك الزواج ، ويبيع الكتب التى أمضى
حياته فى جمعها والى يحبها الحب كله ليقدم للفتاة البائنة
المناسبة ، وحيثما تذهب الفتاة مع زوجها يعود بونار
العجوز إلى حجرة مطالعته الخالية ، وقد حرم من
كتبه ومن الفتاة التى اختصها بعطفه وأحاطها برعايته ،
ويجد القط الذى كان ينازعه كرسىه فى الحجرة قد
افترق الكرسى واستأثر به ، والرواية فى مجموعها تم
على رقة الشعور ورهافة الإحساس ونصف جانباً من
شخصية المؤلف ولعله عابها من قبيل التواضع أو من

والعواصم الزاهرة ، بحثاً عن هذا الرجل السعيد ،
وبحثوا بين الحاشية ورجال البلاط المقربين وبين كبار
رجال الدولة والأعيان أصحاب الجاه والنفوذ ، وسألوا
الفلاسفة والعلماء ، والفنانين والمحبين والشعراء ، فلم
يسمعوا إلا الشكوى المرة من الحياة والتبرم بها واستهوال
فجائعها وفظائعها ، وأخيراً تأدى بهم البحث الطويل
والتنقيب الشديد إلى وجود ناسك يعيش في الغابات
عيشة طبيعية ويزعم أنه سعيد ، ولكنه للأسف لم يكن
ملك قميصاً !

وقدر أناتول فرانس بوصفه حفيداً لفولتير الحكمة
التي انتهى إليها فولتير في رواية كانديد فقال « أعتقد
أن زرع الكرب أكثر حكمة من كتابة الكتب . . .
إن الكتب هي أفيون الغرب . . إنها تلهيها ، وصدقني
حين أقول لك ذلك لأنني أعبد الكتب ، وقد وهبت
نفس لها منذ زمن طويل » .

وقد شاهد الذين يدرسون الحنطة فغطهم على
العمل الذي يقومون به ، وسجل ذلك ضمن أحد فصول
كتابه عن الحياة الأدبية قائلاً « وهكذا ألقيت جانباً
كتبي وقلمي وأوراقى ، وأخذت أنظر في حسد إلى
دارسى الحنطة ، هؤلاء العمال البسطاء الذين يقومون
بعمل يعلو على كل عمل آخر ، فما العمل الذي أقوم
به إلى جانب عملهم ؟ وما أشد شعوري بالضعف والحقارة
أمامهم ! إن العمل الذي ينهضون به عمل لازم ونحن
مشعوذون تافهون ونافخون في الناي مغرورون فهل
نستطيع أن نقنع أنفسنا بأننا نقوم بعمل لا أقول نافعاً
ولمّا خالص البراءة ؟ سعيد الرجل والثور اللذان يسيران
على الصراط المستقيم ، وكل ما عدا ذلك جنون أو على
الأقل خبط عشواء ومدعاة للمتاعب والهموم ، والعامل
الذي أراه من نافذتي سيدرس اليوم ثلثائة حزمة من
الحنطة ، ثم يذهب بعد ذلك إلى فراشه متعباً وقانعاً
راضياً دون أن يشك في صلاح عمله ، آه ! إنه سرور

قبيل السخرية ، فإنها ليست بحال من الكتب التافهة ،
ولا تزال تعد ضمن كتبه القيمة ، وقد رفعت من شأنه
ووطدت شهرته حين ظهورها ، وحملت القارئ بأمر
جريدة الطان الفرنسية الشهيرة على أن يعهدوا إليه في
كتابة فصل أسبوعي في نقد الكتب ، وقد جمعت فيما
بعد هذه الفصول في أربعة مجلدات باسم « الحياة
الأدبية » وقد تجلت فيها قدرة أناتول فرانس الناقد
الأدبي البار الذي يتبع المذهب التأثري ويدين به والذي
عنده « أن الناقد المجيد هو الذي يروى لنا مخاطرات
روحه بين طرائف الفن » والنقد عند أناتول فرانس هو
التعبير عن الأثر الذي يتركه الاستمتاع بقراءة الكتب
في نفوسنا ، وقد ظل أناتول فرانس يوالى نشر فصوله
في النقد الأدبي بجريدة الطان من سنة ١٨٨٨ إلى سنة
١٨٩٢ وقد دلت هذه الفصول على قيمته ورفعت من
شأنه فلما مات ارنست رينان في سنة ١٨٩٢ خلفه على
الزعامة الأدبية للثقافة اللاتينية هذا الناقد الجديد الذي
بلغت سنه الثامنة بعد الأربعين .

وكان أناتول فرانس حينذاك يرى أن فساد الذوق
في الأسلوب هو الخطيئة الوحيدة ، « وأنه يزعم حتى
هؤلاء الذين لم يبرزقوا الذوق الحسن ، وأن الخطأ في
الذوق أشد نكراً من خرق قانون الجنائيات » ، وكان
يميل في تلك الفترة إلى أن يعيش بين الكتب في عزلة
كعزلة الرهبان ، ولكنه أخذ يفكر مع ذلك في الكتابة
وقيمتها وماذا يجدي أن يضيف الإنسان صفحات قليلة
إلى تلك الكتل المكدسة من الأوراق التي سودها
المداد ؟ من الخير أن يمسك الإنسان عن الكتابة !
ولاحدى الأقصوصات التي كان يرددها تكاد تشيد
بتلك البساطة التي بشر بها ودعا إليها روسو ، وأقصد
بها أقصوصة الملك الحزين الذي أخبره العرافون أنه لن
يظفر بالسعادة ويسترد راحة البال إلا إذا حصل على
قميص رجل سعيد ، فأرسل أعوانه يطوفون بالبلاد ،
ويجوبون السهول والحزون ، ويرتادون البوادي المقفرة ،

أداء عمل في دقة وانتظام ! ولكن هل أستطيع في هذا المساء أن أعلم متى أتممت كتابة الصفحات العشر ، أنى لم أقض نهاري عبثاً ، وأنى قد أستطيع النوم ؟ وهل أستطيع أن أعرف أنى حملت الحبوب إلى الأنبار ؟ وهل أعلم أن كلماتي خبز الحياة ؟ لنعلم مهما يكن عملنا أننا نوؤديه بنية خالصة وقلب خال من الأضغان ، ولكن هذه الخواطر لم تمنع أناطول فرانس من تأليف الكتب ، وقد وصف لنا طفولته ونشأته في ثلاثة كتب من كتبه ، وهى « كتاب صديقى » و « بيبير الصغير » و « ازدهار الحياة » ، ومن أشهر رواياته رواية « تاييس » و « مطبخ الملكة بيدوك » و « الزئبقية الحمراء » و « حديقة ابيقور » و « آبار سانت كلير » و « ثورة الملائكة » و « الآلهة ظمأى » .

وفي سنة ١٨٩٥ وقعت حادثة أخرجت أناطول فرانس من برجه العاجى إلى معترك السياسة ، وهذه الحادثة هى قضية دريفوس ، وكان دريفوس هذا ضابطاً يهودياً فى الجيش الفرنسى اتهم ببيع الأسرار الحربية الفرنسية لألمانيا ، وقد أدين وجرد من رتبته العسكرية ، ونفى إلى جزيرة الشيطان فى غانة الفرنسية ، ورأى بعض الفرنسيين الذين لم تعصف النزعة القومية والتطرف فى الوطنية بحاسة العدالة فى نفوسهم بعد البحث والتحرى الزيهين أن الوثائق التى أدين بموجبها دريفوس مزورة ، وتصدى للدفاع عنه وإعلان براءته الكاتب الروائى الفرنسى اميل زولا بمقالات رنانة عنوانها « إني أتهم » وكان أناطول فرانس قد انتقد اميل زولا فى أحد الفصول الأدبية التى كان يوالى نشرها فى جريدة « الطان » نقداً قاسياً خرج فيه عن طوره وخالف فيه طبيعته الهادئة المهذبة وأسلوبه الإنسانى السمع ، ومن أمثلة ذلك قوله « كان خيراً لو أن زولا لم يولد » ولكنه رأى أن زولا على حق فى دفاعه عن دريفوس وأن القضية قضية العدالة قبل كل شئ ، فلم يتردد أناطول فرانس فى الوقوف إلى جانب اميل زولا ، ففى صباح

اليوم التالى لظهور « إني أتهم » راع باريس ظهور « احتجاج المثقفين » ودهش الناس لظهور اسم أناطول فرانس فى طليعة امضاءات المحتجين .

ولا نزاع أنه كان من بين أسباب خوضه عباب هذه المعركة صداقته لبعض كبار الكتاب الإسرائيليين ، وعلاقته بمدام كافييه التى كان لها تأثير كبير فى حياته الأدبية ، ولكن السبب الأكبر الذى جعله لا يتردد هو أنه رأى فى الظلم الذى حل بدريفوس محاولة من الكنيسة للسيطرة على الجيش ، ونخشى أن يسفر ذلك عن محاولة للارتداد إلى النظام القديم وانتصار الرجعية ، وهو أمر لا يستطيع الصبر عليه تلميذ فولتير فأخذ يصب غضبه فى طائفة من الكتب والرسائل واستعمل تخريته الرقيقة سلاحاً لا يفلى حده ، ولم يبال بضغط الجماعات عليه ، وأعيد النظر فى قضية دريفوس وثبتت براءته مما اتهم به ، وأعيد إليه اعتباره ، وكشفت هذه المعركة أن وراء المتشكك إنساناً لم تجف فى نفسه ينابيع اليقين ، وأنه خلف الهاوى المقيم فى البرج العاجى مجاهداً لا تخذله شجاعته .

ولكنه مع ذلك ظل ينظر إلى الحياة نظرة حزينة ، روى لنا سيجير فى كتابه الممتع « أحاديث مع أناطول فرانس » أنه زاره فى الفيلا التى كان يقيم بها وكان عنده جماعة من الزائرين وقد أخذ يعلق على كلمة حزينة صدرت من حفيده قائلاً « إنه يقتدى بى ، لقد رأيت الحياة دائماً شيئاً مخزناً حزناً لا يطاق » .

ولما رأى الدهشة بادية على وجوه الحاضرين استرسل فى الحديث قائلاً : « نعم ، إني أظن الحياة شيئاً رهيباً ، ولا أعرف شيئاً أكثر مخالفة لمشاعرى وأشد اعتياصاً على فهمى من كلمات رينان التى أعلن فيها أنه يقبل بارتياح أن يبدأ حياته مرة أخرى ويمر بالمهزلة نفسها من جديد ، إن مجرد هذه الفكرة تجعلنى أقشعر » وعجب سيجير والحاضرون لهذا الاعتراف ، وقال له سيجير : إنه كان يعتقد أنه آخر من يحق له

لقب بذلك لأنه كان ابن طباح بشارع القديس جاك ، وكان تورنبروش يضممر له الحب والإعجاب ويقول عنه : إنه أستاذه الصالح ويصفه بأنه كان أطيب الناس نفساً ، وقد عمل على جمع أحاديثه كما فعل زينوفون مع سقراط .

ويقول أناتول فرانس : « وإني أميل إلى الاعتقاد بأن تلميذ الأب جيروم كوانيار لم يقم بطبع مؤلفاته لأنه وقد تخرج على يد أستاذ قدير مثله فإن حكمه على الشهرة الأدبية كان صائباً ، وقد أعطاها قيمتها الحقيقية ، وهي أنها ليست بشيء ، وقد عرفها غير مأمونة ومتقلبة وعرضة للتغير ، وأنها متوقفة على مناسبات حقيرة ومسفة ، ولما رأى معاصريه جهلة وميالين إلى الانتفاص وعاديين فإنه لذلك لم يجد ما يدعو إلى الأمل في أن الذين يخلفونهم سيصبحون فجأة علماء متزينين يمكن الاعتماد عليهم ، وغاية ما في الأمر أنه تكهن بأن المستقبل وهو لا يدرى شيئاً عن مشكلاتنا فإنه لن يعبأ بتصحيح الأحكام ، ونحن واثقون كباراً وصغاراً أن المستقبل سيجر علينا جميعاً ذبول النسيان ويشملنا كلنا هدوء الصمت المطرد » .

ولذلك اكتفى جاك تورنبروش بتدوين أحاديث أستاذه وتقديمها للطبع ولكن الكتاب ظل مع ذلك أكثر من قرن قبل أن يرى الشمس ، وقد عثر أناتول فرانس - كما يروى لنا - على المخطوط عند أحد باعة الكتب وقدمه للطبع وأشرف على طبعه سنة ١٨٩٣ تحت عنوان « مطبخ الملكة بيدوك » ولم يكتف جاك تورنبروش بتدوين أعمال أستاذه وأقواله في كتاب مترابط الأجزاء متصل الحلقات وإنما عني كذلك بجمع أحاديثه التي لم تدون في الكتاب ولذلك أفرد لها كتيباً يقول أناتول فرانس أنه عثر عليه مع أوراقه الأخرى ، وهذا الكتيب وهو ما أطلق عليه اسم « آراء الأب جيروم كوانيار » ، ويقول أناتول فرانس : إن ما لقيه الكتاب الأول من إقبال وتقدير هو الذي حمله

مخاصمة الحياة ، فقد حابته المقادير ، واختصته بمواهب وقدرات لم تجد على غيره بمثلها فأجابه أناتول فرانس قائلاً : « تريد أن تقول إنني أملك موهبة الفهم ، ولكن هل تظن أن هذه الموهبة تساعد على نيل السعادة ؟ إن قوة الفهم هذه نفسها تحول بيننا وبين السعادة ، وفضلاً عن ذلك فإنني لم أوت البصيرة النافذة والفهم الذي يبدو أنك تتوهمه ، وذلك لأن الرجل الذي رزق الحكمة كاملة يلغى وجوده فوراً وبذلك يتخلص من الشباك التي تنصبها لنا الطبيعة وتحني رؤوسنا تحت أعباء الحزن والملل وترغمنا على المسير إلى النهاية المرة بهذا الألم والعذاب الذي نسميه الحياة » .

فقال له سيجير « ولكنك كنت سعيداً ! » .

فأجاب أناتول فرانس « لم أكن سعيداً قط ساعة واحدة ولا دقيقة مفردة ، وذلك على الأقل منذ كنت طفلاً ، ولكي يكون الإنسان سعيداً عليه أن ينسى ، وعليه أن يفقد الشعور بوجوده ، وهذه النعمة لم تهب لي » وقد أعطانا أناتول فرانس صورة لنفسه وخلاصة لأفكاره في معظم المشكلات الاجتماعية والسياسية في كتاب « آرام جيروم كوانيار » وهو من أدل كتبه على موقفه من الحياة والمجتمع بوجه عام ، وقد أجاد أناتول فرانس في تصوير شخصية جيروم كوانيار وحشد لها قدرته الفنية .

وبحدثنا أناتول فرانس عن الأب جيروم كوانيار بأنه كان أستاذ الخطابة في كلية بوفيه وأميناً لمكتبة سيد دى سيز وأنه صار بعد ذلك سكرتيراً لمقبرة « الأبرياء المقدسين » وأخيراً أميناً لمكتبة من المكتبات الهامة وقد قضى نحبه قتيلاً في طريق ليون إذ اعتدى عليه أحد اليهود القرائين ، وقد ترك عدداً من المؤلفات غير كاملة ، وذكرى أحاديثه الشائقة ، وقد روى لنا أخبار حياته العجيبة المحزنة ومصرعه الأليم صاحبه وتلميذه جاك منتربيه المعروف باسم نورنبروش (أسياخ الشئ) وقد

بالروية الباطنية ، وكلاهما كان معيناً ، فالأول قضى على الأوهام الخداعة ، والآخر خلق أوهاماً لا يستيقظ منها الإنسان .

ولكن أناتول فرانس لا يريد المبالغة في تقدير صاحبه فيقول : « ومن المؤكد أن الأب كوانيار لم يكن يعادل في العمل أو في الفهم أجراً الحكماء ولا أشد القديسين تحمساً ، فإن الحقائق التي كشفها لم يستطع أن يسير معها قدماً ، وحتى في أصعب كشوفاته ظل محتفظاً بهدوء السائر المتمهل ، وهو لم يستثن نفسه استثناءً كافياً من الاحتقار الذي كان يثيره في نفسه غيره من الناس ، وكان ينقصه ذلك الوهم الثمين الذي اعتمد عليه ديكرت وبيكون اللذان كانا يؤمنان بنفسيهما حينما عز عليهما الإيمان بأى مخلوق آخر ، وهذا الشك في نفسه جعله يبعثر كنوز عقله بغير مبالاة ، وقد حرم من تلك الثقة بالنفس الشائعة بين المفكرين والتي تجعلهم يعتقدون أنهم أسمى من أعظم الحصفاء ، وهو خطأ غير قابل للتسامح لأن المجد وقف على هؤلاء الذين يواظبون على طلبه ، وفضلاً عن ذلك فإن هذا كان في السيد الأب كوانيار ضعفاً وشيئاً غير منطقي ، وما دام قد استرسل مع جرأته الفلسفية إلى أقصى حدودها فقد كان عليه أن لا يتردد في أن يعلن عن نفسه أنه الرجل الأول ، ولكن قلبه ظل بسيطاً ، وروحه بقيت نقية ، وفقر روحه التي لم تعرف كيف تسمو على الدنيا سبب أذى بالغاً ، ولكن هل هناك ما يدعو إلى أن أقول إنه أحب إلى على ما كان عليه ؟ ولا أخشى أن أؤكد أن الأب كوانيار الفيلسوف والمسيحي كان يمزج الأبيقورية المعدومة النظير التي تستبعد الحزن بالبساطة المقدسة التي تؤدي إلى السرور » .

ويمضي في وصف الأب كوانيار فيقول « لم أرقط قبله عقلاً يجمع بين الجرأة والميل إلى المصالحة والسلام . ولقد كان يحتقر الناس احتقاراً رقيقاً ، وقد حاول أن

على تقديم الكتيب الثاني الذي تبدو فيه حكمة الأب جيروم السمحة وشكه الكريم الممزج بالاحتقار للبشرية والعطف عليها في الوقت نفسه ، ويقول أناتول فرانس : إنه لا يحمل تبعة الآراء التي أبدأها فيلسوفنا في مختلف الموضوعات السياسية والأخلاقية ، وإن واجبه بوصفه ناشراً يفرض عليه أن يظهر أفكار المؤلف في ضوء ملائم ، وعقل الأب كوانيار المنطلق يطأ المعتقدات السوقية المبتذلة ولا يناصر بغير نقد الآراء الشائعة بين الجمهور إلا في المسائل المتصلة بالمذهب الكاثوليكي الذي يقف إلى جانبه ولا يحيد عنه قيد أنملة ، وفيما عدا ذلك فإنه لا يخشى معارضة العصر وهو من أجل ذلك يستحق التقدير ، ونحن مدينون له بالشكر لمحاربته لكثير من الأحكام الخاطئة والآراء الزائفة .

ويذكر أناتول فرانس أن الأب جيروم عاش رجلاً حراً منطلقاً من إसार الأخطاء العادية وأن الأهواء العارضة والخاوف التي تنخلع لها القلوب لم يكن لها سلطان على نفسه ، وأن ذكاهه الفائق كان له نظرة طريفة إلى الطبيعة والمجتمع ، وأنه لم يكن ينقصه لكى يروع الإنسانية ويسيرها سوى البراعة أو إرادة ملء الفجوات بين الحقائق بالسفسطة التي تجعلها متماسكة كالبنيان يشد بعضه بعضاً .

ويسترسل أناتول فرانس في وصف الأب جيروم - وهو في الواقع يصف لنا نفسه - فيقول « كانت تنقصه الموهبة التركيبية أو إذا شئت فن التنسيق وقانونه وبدون ذلك قضى عليه أن يبدو - كما كان في الواقع - نوعاً من مزيج مكون من أبيقور والقديس فرنسيس الأسيسى ، وهذان الإثنان يبدو لى أنهما كانا خير صديقين للإنسانية في طريقها المتعثر إلى التقدم خلال الحياة ، فأبيقور قد حرر الروح من المخاوف الفارغة وعلمها أن تجعل فكرتها عن السعادة ملائمة لطبيعتها البائسة وقواها الضعيفة ، والقديس الصالح فرنسيس وهو أرق حاشية وأكثر عطفاً دلنا على طريق السعادة

يريهم أنهم لما كانوا لا يملكون مقياساً للعظمة عندهم سوى قدرتهم على احتمال الحزن فإنهم لا يدخرون لأنفسهم شيئاً أكثر نفعاً وأجمل من التقوى . . . ولقد صار يعتقد أن الكبرياء هي منبع أعظم الشرور ، وأنها هي الرذيلة الوحيدة الموجهة ضد الطبيعة ، وأن الناس على ما يبدو في الحقيقة يجعلون أنفسهم أشقياء بالفكرة المبالغ فيها التي يكونونها عن أنفسهم وعن نوعهم ، وأنهم لو استطاعوا أن يكونوا فكرة أكثر تواضعاً وأقرب إلى الحق عن الطبيعة الإنسانية لاستطاعوا أن يكونوا أكثر عطفاً على غيرهم وأكثر عطفاً على أنفسهم .

« فظفرت العاطفة كانت إذن منحضة على أن يستدل لإخوانه البشر بأن يريهم ما في آرائهم ومعتقداتهم ونظمهم من نقص ، وعقد عزمه على أن يريهم أن طبيعتهم الضعيفة السخيفة لم تنشئ ولم تتخيل أى شئ يستحق عناء الهجوم عليه والدفاع عنه في جد واهتمام ، وأنهم لو علموا ركافة أعظم أعمالهم وضعفها مثل القوانين والإمبراطوريات لما حاربوا إلا في اللهو واللعب كالأطفال الذين يبنون القلاع الرملية على شاطئ البحر ، فلا عجب إذن ولا داعي لأن نظن أنفسنا قد تعرضنا للفضيحة حينما نراه قد انتقص كل تصور قام عليه شرف الإنسانية ومجدها على حساب فقدان السلام . . . وكان يرى أن كل المبادئ على السواء جذيرة باحتقاره . . . ولقد صار أخيراً يعتقد أن أعضاء الدولة لا يحكمون بإدانة الكثيرين من نوعهم ويفضحونهم إلا إذا لم تكن عندهم رغبة في تذوق الاحترام الذي يعتقدونه في أنفسهم ، وقد جعله هذا الرأي يؤثر صحبة الطالحين على صحبة الصالحين . . . ولكنه ظل محتفظاً ببقاء القلب وهبة العطف وكثر الإشفاق . . . ولقد وجد بعد البحث والدراسات أن الأب كوانيار كان شخصية محبوبة سارة ، وكانت تنقصه نفخة الاحترام ، فقد حرمة إياها الطبيعة ولم يعمل هو من جانبه على تحصيلها

واكتسابها ، وكان يخشى أنه إذا أعلى من شأن إنسان فقد يحط من شأن غيره ، وعطفه الشامل كان يشمل المتواضع والمتكبر .

وبعدنا عن رأى كوانيار في عدم استطاعة الإنسان نيل السعادة بقوله « لقد كان شديد الاقتناع بأن الإنسان بطبيعته حيوان شرير ، وأن المجتمعات ليست بغیضة لأنه يستعمل كل ذكائه في تشكيلها ، ولذلك كان لا ينتظر أى خير من العودة إلى الطبيعة ، وأشك في أنه كان يغير فكرة لو كان عاش حتى يقرأ كتاب « إميل » وحينما أدركته الوفاة كان جان جاك لم يهز العالم بعد ببلاغته الصادرة عن أخلص المشاعر ممزجة بمنطق أكثر ما يكون زيفاً ، كان لا يزال متشرداً صغيراً ، ومن سوء حظه أنه لقي قساوسة آخرين غير الأب كوانيار في مقاعد مماشى ليون المهجورة . . . ولو أن جان جاك لقي فيلسوفنا الذي برئ من الأوهام لما رضى عن حكمته ، ولا شئ أبعد شهاً عن فلسفة روسو من فلسفة السيد الأب كوانيار ، وفلسفة الأخير تتسم بالسخرية الرحيمة ، وهي فلسفة سهلة متساحة وهي قائمة على الضعف البشري ، ولذلك أساسها راسخ ، وفلسفة روسو تنقصها السخرية الطروب ، وتعوزها الابتسامة العارضة ، وقد قامت على أساس خيالي ، وهو الاعتقاد بفضيلة الإنسان الأصلية ، ولذلك تجد نفسها في موقف مربك لا يبدو لها ما ينطوى عليه مما يبعث على الضحك ، وتظهر حيرتها في فكاهتها الغثة ، وهي فظة غليظة القلب ، وكان يمكن أن لا يكون شئ في ذلك ولكنها تعيد وضع الإنسان بين القردة وتغضب بغير مسوغ حينما لا يكون القرد خيراً ، وهي في ذلك سخيفة وقاسية ، وقد ظهر ذلك في أوضح مثال حينما حاول رجال الدولة تطبيق تعاليم العقد الاجتماعي على أحسن الجمهوريات ، وكان روبسبير يحترم ذكرى روسو ، وكان لا بد أن يحشر الأب كوانيار في زمرة الأشرار ، وما كنت لأبدي هذه الملاحظة لو أن

روبسبير كان هولة ، ولكن عند العلماء ليس هناك هولات ، وقد كان روبسبير متفائلاً ، يؤمن بالخير ، والسياسة أصحاب هذه النزعة يأتون كل ما يمكن من الشر ، وإذا تدخل الإنسان في حكومة النوع البشرى فعليه أن يضع نصب عينيه على الدوام أنهم قردة ، وأنهم أشرار ، وهذا يستطيع أن تكون له سياسة إنسانية رحيمة ، وقد كانت حماقة الثورة الفرنسية في أنها أرادت أن توطد الفضيلة على الأرض ، وحينما يريد الإنسان أن يجعل الناس صالحين وعقلاء وأحراراً ومعتدلين ومستقلين الرأي فإنه ينساق إلى الرغبة المشثومة وهي الرغبة في القضاء عليهم جميعاً ، وقد كان روبسبير يؤمن بالفضيلة ولذلك جاء بحكم الإرهاب ، وكان مارا يؤمن بالعدالة ولذلك طالب بالإطاحة بمائتي ألف رأس ، وربما كان السيد الأب كوانيار الوحيد من بين ذوى العقول في القرن الثامن عشر الذى كانت مبادئه تناقض مبادئ الثورة الفرنسية ، وما كان ليقبل أن يضع خطاً في إعلان حقوق الإنسان ، وذلك لأن هذا الإعلان يفرق تفرقة غير مقبولة بين الإنسان وبين الغوريلا » .

ويروى أناتول فرانس مؤيداً آراء كوانيار ما يأتى « زارنى فى الأسبوع الأخير أحد الرفقاء الفوضويين الذى يشرفنى بصداقته ، وأنا أوده لأنه لم يشترك بعد فى حكومة بلاده وقد احتفظ بالكثير من براعته ، وهو يريد أن ينسف كل شيء لجحد أنه يؤمن أن الناس بطبيعتهم صالحون وأفاضل ، وهو يرى أنه متى جردوا مما يملكون وأنقذوا من القوانين فإنهم ينسون أنانيتهم ويذهب ما فى نفوسهم من شر وإثم ، وأرق أنواع التفاؤل قد قادت إلى أشد أنواع القسوة والوحشية ، ومصيبته الوحيدة وجريمته الفذة هي أنه حمل روحاً من رياض الفردوس خلقت للعصر الذهبى إلى عمل طباح وقد قضى عليه بذلك . . . وصراحته تركه تحت رحمة منطقته وتجعله رهيباً ، وهو يفكر أحسن من وزير

ولكنه ابتداء من مبدأ فاسد ، وهو لا يعتقد بالخطيئة الأصلية وهي مع ذلك العقيدة التى لها من ثبات الأساس ما مكننا من أن نبني عليها كل شيء اخترناه » .

ويقول أناتول فرانس أن الأب كوانيار لم يكن يرى فرقاً ذا بال بين الحكومات المطلقة والحكومات الحرة ، ففى الديمقراطية يخضع الناس لإرادتهم الخاصة وهي عبودية قاسية ، وفى الواقع أن الناس لا تعرف إرادتها سوى معرفة قليلة وهي تعارضها كما تعارض إرادة الأمير . . . والتصويت العام فى الانتخابات مخزية ومهزلة . . . والحكومة القومية مثل الحكومة الملكية قائمة على الوهم ، ونرى من ذلك أن الأب كوانيار كان رجعيّاً فى جانب من أفكاره ، وأنه لم يكن ثورياً بحال من الأحوال .

ويقول أناتول فرانس : « كان الأب كوانيار من أنصار النظام والتقدم ، ولم يكن مواطناً رديئاً ، ولم يحث أحداً على الثورة لأنه على ما يظهر كان يؤثر التغير البطئ على التغير السريع الذى يحدث بالضربات الحاطمة والإجراءات الحاسمة ، وكان لا يبنى يردد لتلامذته قوله : إن أقسى القوانين ترق حاشيتها مع مرور الزمن وأن رحمة الزمن أكد وأضمن من رحمة الإنسان .

ويقول أناتول فرانس : إن آراء السيد الأب كوانيار تساعدنا فى اختبار ضميرنا إذا لم نكن مثل الدمى التى لها عيون ولكنها لا ترى ولها آذان ولكنها لا تسمع ، وبقليل من الإيمان الحق وعدم التحيز سرعان ما نرى أن قوانيننا لا تزال مرتعاً للظلم ، وأننا ما تزال محتفظين فى عاداتنا وأحوالنا بشدة البخل والكبرياء الموروثة ، وأننا نقدر الثروة وحدها ولا نحترم العمل . . . وإذا استطعنا حيناً نحكم على بعضنا بعضاً أن نلتزم الشك الرحيم فإن المعارك ستكون أقل قسوة ويكون الأب كوانيار قد استطاع أن يعمل للخير العام .

وقد وقف أناطول فرانس من التاريخ موقف الشك جرياً على طريقته وذلك برغم حبه للتاريخ وطول اشتغاله به ، وقد أمضى سنوات طويلة في استقصاء أخبار جان دارك ليكتب عن حياتها ومغامراتها ، وقد بدأ أناطول فرانس التعبير عن شكه في التاريخ في رواية « جريمة سلفستر بونار » ، فهو في هذه الرواية يقول : « إن التاريخ الذي كان فيما مضى فناً والذي كان يهني مكاناً لانطلاق الخيال انطلقاً تاماً قد أصبح في عصرنا علماً تتطلب دراسته غاية الدقة في المعرفة » ، ويقول أناطول فرانس ذلك على لسان أحد أشخاص الرواية ، ولكن السيد جليس - أحد أشخاص الرواية - يتحدث بلسان أناطول فرانس ويبسط رأيه في الاعتقاد بأن التاريخ ليس علماً وأنه لا يمكن أن يصير علماً فيقول « قبل كل شيء ما هو التاريخ ؟ إنه التمثيل المكتوب للحوادث الماضية . . . ولكن ما هي الحادثة ؟ . . هل هي مجرد حقيقة عادية ؟ وهل هي أي حقيقة من الحقائق ؟ . . لا ، أنت نفسك تقول إنها حقيقة جديرة بأن ينوّه بها ، ولكن لننظر الآن كيف يستطيع المؤرخ أن يميز الحقيقة الجديرة بالتنويه بها من الحقيقة التي لا تستحق ذلك ؟ إنه يعتسف الحكم بحسب ذوقه ونزواته وأفكاره . . وبالاختصار باعتباره فناً . . . وذلك لأن الحقائق في ذاتها بسبب طبيعتها الذاتية لا يمكن تقسيمها إلى حوادث تاريخية وحوادث غير تاريخية ، وكل حقيقة شيء معقد إلى حد كبير ، فهل يمثل المؤرخ الحقائق في تعقيدها ؟ كلا إن هذا ليس بمستطاع ، فهو إذن يمثلها منتزعة من الخصائص التي تكونها ، ومن ثم يمثلها مشدبة مقلّمة مبتورة منقوصة مختلفة عما كانت عليه ، أما عن العلاقة المتبادلة بين الحقائق فليس بنا من حاجة إلى الكلام عنها ، وإذا كانت ما تسمى حقيقة تاريخية قد أظهرها واسترعى النظر إليها - كما هو محتمل - حقيقة تاريخية أخرى أو أكثر من حقيقة ولكنها ليست تاريخية بحال من الأحوال

فهى مجهولة من أجل ذلك ، فكيف يستطيع المؤرخ أن يكشف علاقة هذه الحقائق بعضها ببعض ؟ وأنا أقترض في هذا القول أن أمام المؤرخ الدليل الثابت ، في حين أنه في الواقع يستشعر الثقة بهذا الشاهد أو ذاك لأسباب عاطفية ، فالتاريخ ليس علماً ، إنه فن ، ولا يستطيع الإنسان أن ينجح في هذا الفن إلا عن طريق استعمال الخيال .

وقد عاد أناطول فرانس إلى تناول هذا الموضوع على لسان الأب جيروم كوانيار في الفصل الذي عقده للكلام عن التاريخ وهو يقول في هذا الفصل : « وضع المسيو رومان ستة مجلدات على المنضدة ، وقال « أريد منك يا مسيو بليزوه أن تبعث إلى هذه الكتب ، فيها هنا كتاب « الأم والإبن » و « مذكرات بلاط فرنسا » و « وصية ريشلييه » وسأكون شاكرًا لك إذا أضفت إليها أي شيء جديد مما عسى أن يكون قد ورد إليك أخيراً من كتب التاريخ ، وبخاصة الكتب التي تتناول تاريخ فرنسا منذ وفاة هنري الرابع ، فأنا معنى أشد عناية بالاطلاع على هذه الكتب جميعها » .

فقال له أستاذي جيروم كوانيار « إنك على حق يا سيدي ، فكتب التاريخ ملأى بالمادة السهلة الخفيفة الصالحة لتسليّة الرجل الأمين ، الإنسان واثق من أنه سيجد فيه طائفة كبيرة من القصص الشائقة » .

فأجابه المسيو رومان « ليس ما أنتظره من المؤرخين يا صاحب النيافة هو التسليّة العارضة ، فالتاريخ دراسة جدية ، وأن اليأس ليملاً قلب نفسي إذا وجدت الخيال ممزجاً بالحقيقة ، وأنا أدرس الأعمال البشرية من حيث صلتها بسلوك الأمم ، وأبحث في التاريخ عن مبادئ الحكم » .

فقال أستاذي كوانيار « لست أجهل ذلك يا سيدي ورسالتك عن « النظام الملكي » لها من الشهرة ما يكفي ليجعلنا نعرف أنك قد تصورت مذهباً سياسياً مستخرجاً من التاريخ » .

فقال الميسو رومان « وهذه الطريقة أصبحت أول من استخلص من التاريخ القواعد التي لا يستطيع السياسيون الانحراف عنها دون الاستهداف للخطر . »

« ولقد رأيناك يا سيدى فى الصورة التى صدرت بها كتابك وأنت فى شكل مينيرفا تقدم إلى ملك شاب المرأة التى ناولته إياها الآلهة كلبو وهى ترفرف بجناحيها فوق رأسك فى حجرة المطالعة المزدانة بالتماثيل النصفية والصورة ولكن اسمح لى يا سيدى أن أذكر لك أن هذه الآلهة راوية قصص ، وأنها تقدم لك امرأة مزيفة ففى التاريخ حقائق قليلة ، والوقائع التى يتفق عليها المؤرخون هى الوقائع التى نحصل عليها من مصدر واحد ، والمؤرخون أينما يتلاقوا يناقض بعضهم البعض ، بل هناك ما هو أدهى ! فإننا نرى أن فلافيوس يوسيفوس الذى صور الحوادث نفسها فى كتابه عن « العصور القديمة » وكتابته عن « حروب اليهود » يرويه بشكل مختلف فى كلا الكتابين ، ونيثاس ليفياس ليس سوى جامع خرافات ، وتاسيتوس وهو كاهنك وصاحب وحيك يخلف فى نفسى من الأثر ما يجعلنى أراه مخادعاً متجهماً يزدري العالم جميعه تحت ستار التوقر والتزام الجدل ، وإنى أحترم تيوتيديس وبوليبياس وجويكشاردينى أما ميزيرى^(١) فإنه لا يدرى ما يقوله أكثر مما يدرى^(٢) فيلاريه والأب فى ، ولكنى أتهم المؤرخين فى حين أن التاريخ هو الذى يجب أن أهاجمه .

فما هو التاريخ - إنه خليط من القصص التى ترمى إلى مغزى أخلاقى أو مجموعة من الأخبار والخطب البليغة تبعاً لقدرة المؤرخ فى الفلسفة أو فى الخطابة ، وقد نجد فيه فصولاً بليغة ، ولكن يلزم أن لا تبحث عن الحق هناك ، لأن الحق يقوم على إظهار العلاقة الضرورية بين الأشياء ، والمؤرخ لا يعرف كيف

(١) ميزيرى مؤرخ فرنسى (١٩١ - ١٦٨٣) ومؤلف كتاب عن تاريخ فرنسا .
(٢) فيلاريه مؤرخ فرنسى (١٧١٦ - ١٧٩٦) .

يوجد تلك العلاقة لأنه لا يستطيع أن يقفوا أثر سلسلة المسببات والأسباب ، ولا تنس أنه كل مرة يكون فيه سبب الواقعة التاريخية كامناً فى واقعة ليست تاريخية فإن التاريخ يعجز عن رؤيته ، ولما كانت الوقائع التاريخية متصلة اتصالاً وثيقاً بالوقائع غير التاريخية فإنه يتبع ذلك أن الوقائع فى التاريخ ليست مرتبطة بعضها ببعض حسب نظامها الطبيعى ، وإنما يربط بعضها ببعض أفانين البيان ، واسترعى نظرك إلى أن التميز بين الوقائع التى تبدو فى التاريخ والوقائع التى يهملها تمييز متعمد مقصود ، وينشأ من ذلك أن التاريخ بعيد عن أن يكون علماً ، لأن فى جوهره عيباً يقضى عليه بأن يظل فى فوضى الباطل ، وسينقض دائماً التسلسل والتابع وبدونهما لا يكون هناك معرفة صادقة ، ولسنا نستطيع أن نرسم صورة لمستقبل أمة قياساً على تاريخها السالف ، على حين أن خاصة العلم هى التكهن بما سيحدث كما نرى ذلك فى جداول حساب أوجه القمر والمد والجزر والخسوف والكسوف .

فبين الميسو رومان للأب كوانيار أنه لا يطلب فى التاريخ سوى الوقائع ، وهى وإن كانت مختلطة شيئاً ما وغير مؤكدة ومشوبة بالأخطاء ولكنها مع ذلك نفيسة للغاية بسبب موضوعها وهو الإنسان .

وأضاف إلى ذلك قوله « أعرف كيف أن مدونات التاريخ الإنسانى قد عبث بها وامتزجت بالخرافة ، ولكن بالرغم من أن التسلسل المختوم بين السبب والمسبب نخذلنا فى التاريخ فإنى أرى فيه نوعاً من القصد الذى قد يغيب عن نظر الإنسان ولكنه قد يعود فيجده مثل أطلال المعابد المدفون نصفها فى الرمال ، وهذا وحده لا تقدر قيمته عندى ، ويزين لى الأمل أن التاريخ فى المستقبل وقد تكون من مادة غزيرة واتبع فيه أسلوب منظم سيبارى فى الدقة العلوم الطبيعية : »

فقال له أستاذى « لا تعتمد على ذلك ، فإن أكبر ظنى أن وفرة المذكرات الشخصية والمراسلات

والسجلات المنظمة ستجعل عمل مؤرخ المستقبل أصعب وأشق ، فالمستر ايلوارد الذى وقف حياته على دراسة ثورة انجلترا يؤكد لى أن مدة حياة رجل واحد لا تكفى لقراءة نصف ما كتب فى أثناء القلاقل والاضطرابات ، وهذا يذكرنى بحكاية فى هذا الموضوع رواها لى الأب بلانشيه ، وسأقصها عليك كما أتذكرها ، وآسف على أن الأب بلانشيه ليس هنا ليقصها عليك بنفسه لأنه حاضر الحاضر نمر البديهة .

وهذه هى الحكاية :

لما خلف الأمير الصغير زمير والده على عرش فارس استدعى علماء مملكته وقال لهم :

« لقد علمنى مؤدى العلامة ذيب أن الملوك إذا استرشدوا بتجارب الماضين قلت أخطاؤهم ، ولذا صحت عندى الرغبة فى الاطلاع على تاريخ الأمم ، وإنى آمركم بوضع كتاب يشمل التاريخ العام ، ولا تفرطوا فى شئ حتى ينجى الكتاب كاملاً » .

فوعده جماعة العلماء بتلبية طلبه ، ولما انصرفوا من حضرته شرعوا يؤلفون فوراً ، وبعد مضى عشرين عاماً مثلوا بين يدى الملك وقد تبعهم قافلة مكونة من اثني عشر جملاً كل منها يحمل خمسمائة مجلد ، ثم تقدم عريف الجماعة وسجد على أعتاب العرش وتكلم قائلاً :

« مولاي ، يشرف علماء مملكتك بأن يضعوا عند قدميك التاريخ العام الذى جمعه تنفيذاً لمشيتة جلالتك وهو يدخل فى ستة آلاف مجلد ، ويتضمن كل ما تيسر جمعه عن عادات الأمم وتقلبات الدول ، وقد أدمجنا فيه المدونات التاريخية القديمة التى لا تزال لحسن الحظ محفوظة ، وقد أتبعناها بشروحات وافية وتعليقات ضافية عن مواقع البلاد والتقاويم والعلاقات السياسية ، والمقدمة وحدها يحملها جمل ، والتعليقات والإضافات يبرز تحت عتبها جمل آخر » .

فأجاب الملك :

« أيها السادة ، أشكر لكم ما تجشتم من عناء ، ولكنى جد مشغول بشئون الملك ، وفضلاً عن ذلك قد تقدمت فى السن فى غضون المدة التى توفرتم فيها على تأليف الكتاب ، وقد بلغت منتصف طريق الحياة كما يقول الشاعر الفارسى ، وحتى لو أوتيت بسطة فى العمر وامتداداً فى الأجل فلست أمل أن أجِد وقتاً يكفى لقراءة مثل هذا التاريخ المطول ، وسيحفظ فى مخطوطات الدولة ، فأحسنوا صنعاً بعمل ملخص له أكثر ملاءمة لقصر الحياة البشرية » .

فاشتغل علماء فارس عشرين سنة أخرى وحملوا إلى الملك فى نهايتها ألفاً وخمسمائة مجلد على ثلاثة جبال .

وتقدم عريفهم الدائم ، وقال بصوت واهن « ها هو يا مولاي كتابنا الجديد ، وفى اعتقادنا أننا لم نحذف شيئاً جوهرياً » .

فأجاب الملك « قد يكون ذلك كما ذكرت ، ولكنى لن أقرأه ، فقد علتنى الشيخوخة ، والكتب المطولة لا تلائم سنى ، فاختصروه ولا تطيلوا الغيبة » .

فلم يترثوا إلا قليلاً حيث عادوا بعد عشرة أعوام يتبعهم فيل يحمل خمسمائة مجلد .

وقال عريفهم الدائم « فى تقديرنا أننا قد اختصرنا الكتاب اختصاراً مفيداً » . فقال الملك « لم تختصروا الكتاب اختصاراً كافياً » ، إنى فى نهاية حياتى ، فاخصروا ثم اختصروا إذا كنتم تحرصون على أن أعرف تاريخ البشر قبل أن أموت » .

وظهر عريفهم الدائم أمام باب الملك بعد خمس سنوات وهو يدب متوكئاً على عكازيه وقد أخذ بلباس جحش يحمل مجلداً ضخماً على ظهره .

فقال له الحارس « اسرع فإن الملك يحتضر » .

والواقع أن الملك كان على فراش الموت ، فحول نظرتة التى أخذت تبدو فيها علامات الموت إلى العالم وكتابه الضخم وقال متهدأ :

«سأمت إذن دون أن أعرف تاريخ بنى الإنسان»
فأجابه العالم الذى كان مثله على أبواب الموت
«مولاي سألخصه لك فى ثلاث كلمات « ولدوا وتألوا
وماتوا ! » :

وهكذا عرف ملك فارس تاريخ العالم فى مساء
حياته » :

ولا يعنى أناتول فرانس العلم من شكه ، فجبروم
كوانيار المتحدث عن لسانه يقول فى أحد أحاديثه مع
تلميذه وتابعه تورنبروش مخاطباً هذا التابع الأمين
« الإنسان فى جوهره حيوان غبي ، وتقدم عقله ليس
سوى نتيجة تافهة لقلقه ، ومن أجل ذلك فإنى لا أتق
بما يدعونه العلم والفلسفة وهما فى رأى إساءة استعمال
للروية وأرقام مضللة ، ويأخذى المعانى هما المزية التى
امتازت بها الروح الشريرة على النفس ، وأنت تدرك
أننى بعيد عن تصديق كل المسائل الشيطانية التى يخيف
بها نفسه الشعب الذى يصدق بها ، وإنى أرى رأى
الكتاب المسيحيين الأوائل وهو أن الإغراء يأتى من
داخل نفوسنا وأتينا الشياطين المسلطة على أنفسنا ،
ولكننى حاقداً على ديكرارت وعلى الفلاسفة الذين اقتدوا
به فحاولوا أن يبحثوا عن قاعدة للحياة وعن مبادئ
السلوك فى معرفة الطبيعة ، وما هى معرفة الطبيعة
يا ولدى تورنبروش ان لم تكن وهماً من أوهام الحواس
وماذا يضيف العلم إليها ؟ إنى أوجه إليك هذا السؤال
وإلى العلماء من عهد جاسندى الذى لم يكن حماراً وديكرارت
وأتباعه إلى السيد الغالى فونتنل ، نظارات كبيرة
يا ولدى مثل هذه النظارة التى أضعها فوق أنفى ، إن
جميع الميكروسكوبات والتليسكوبات التى نختال بها
ما هى إلا أشياء مصنوعة من الزجاج تزيد الأشياء
وضوحاً زيادة قليلة أكثر من نظارتى التى اشتريتها فى
السنة الأخيرة من سوق فى سانت لورانس ، وقد كسر
زجاج العين اليسرى التى أحسن النظر بها عن العين

الأخرى فى هذا الشتاء فى عقب كرسى قدم رعى به
رأسى بائع السكاكين الأعرج الذى توهم أننى كنت
أقبل كاترين صانعة الأشرطة لأنه رجل فظ قد
استطارت عقله روى الرغبات الجسدية ، نعم يا ولدى
تورنبروش ما هى تلك الأدوات التى يملأ بها العلماء
والباحثون أروقتهم وحجراتهم وما هى النظارات
والإسطرلابات والبوصلات إن لم تكن الوسائل لمساعدة
الحواس على استبقاء أوهامها ولمضاعفة جهلنا المشغوم
بالطبيعة فى الوقت الذى نضاعف فيه علاقاتنا بها ؟ إن
أغزر الناس علماً بيننا لا يختلف عن الجهلاء إلا بالموهبة
المكتسبة وهى موهبة تسلية أنفسهم بالأخطاء المتنوعة
المعقدة . . . إنهم لا يكشفون سوى مجرد مظاهر جديدة
وهم ألعبوبة فى يد أوهام جديدة ، وهذا كل ما فى
الأمر . . . ولقد أضلنى يا بنى حب الاستطلاع الزائد
عن الحد ، وقد فقدت بإقبالى على الكتب ومضاجبة
العلماء هدوء القلب والبساطة المقدسة وطهارة الساذجين »
وقد مات أناتول فرانس فى ١٢ أكتوبر سنة
١٩٢٤ بعد أن بلغ قمة الشهرة وأسمى مكانة بن رجال
الأدب والفكر الفرنسيين ، وقد احتفل بجنائزه احتفالاً
كبيراً وكان فى صفوف مشيى جنازته رئيس الجمهورية
ورئيس الوزارة ، وقبل موته بقليل أرسلت إحدى
المجلات الأمريكية إلى مشاهير الكتاب والفنانين والنقاد
فى الولايات المتحدة تسألهم عمل قائمة بأعظم عباقرة العالم
مرتبين حسب تقدير أهميتهم ، وحينما روجعت
الإجابات الواردة كان الأول فى القائمة شيكسبير وكان
الثانى جيتى وكان الثالث أناتول فرانس ، ولكنه
لم يسلم مع ذلك حين موته من النقد الجارح والحملاط
الشعواء ، فقد كان العالم قد بدأ يأخذ بقيمة جديدة ،
ويزن الأمور بمعايير مستحدثة ، فهوجمت مؤلفات
أناتول فرانس وشهرته وشخصه ، وتبع هذا الهجوم
إغفال لذكره وإعراض عن قراءة مؤلفاته بعد أن ظل
قراءة ثلاثين سنة يشار إليه بالبنان ويؤم داره القصاد ،

وتلقى كتبه الرواج المنقطع النظير ، ولو عرف أناتول فرانس في قبره ما نال شهرته وما هدم من مكانته لما أدهشه ذلك فقد كان يشك في بقاء الشهرة الأدبية ويعرف تبدل الأذواق وتغير المعايير ، قال مرة في خلال حديثه مع صاحبه سيجير : « هل يستطيع الإنسان أن يصدق بحقيقة المجد في حين أن أكثر العصور استنارة وهو عصر فولتير كان يزدرى هومر ودانتى ويعد شيكسبير مهرجاً وهمجياً ؟ » .

وقد قيل في نقده : إنه كانت تنقصه القدرة الخالقة وعمق الروائى المتمكن وإن تفكيره خال من الأصالة ، وإن أسلوبه الذى اشتهر به خال من الصبغة العصرية ،

ولأنه اصطنع الشك في العصر الذى لا يعرض الشك صاحبه لأى خطر ولا يثير الغضب ويجلب المتاعب كما كان الحال في عصر فولتير ، وإن رواياته لا تقدم صورة واقعية للحياة ، وإن رأيه في المجتمع وحساسيته وعقليته الساخرة وميله إلى أن يقف موقف الهواة يمثل اتجاهات القرن التاسع عشر ، وقد تحتوى هذه النقادات على جانب من الحق ، ولكن أناتول فرانس مع ذلك كاتب فذ أوحدى الطراز ، وهو يمثل الثقافة الفرنسية في أسمى مستوياتها وقد اتخذ السخرية سلاحاً يقاوم به الظلم والطغيان والسخافات الإنسانية ، وبرغم تشاؤمه كان ينطوى على الرحمة وحب الخير للإنسانية ۞

